جمهور تلامذة الاخوة الرهبان الدارسين في دير سيدة نسيبه-غسطا
وفي اقصى اليمين من الصف الاول الاب نعمة الله ابو ذكر

القدسُ قد طابت سكنى نجلُ ارضُ الاقداسِ
لكن اذا اشكو حزنا فـلا مزاحي
لبنان سهلًا او حزنا الذي وموحي ايناسي
والقوم قومي ان أكنى وخيرُ ناس

∴

مرفرفُ الهدبين معقفُ الجفنين
اذا التفتى مضناك لا ينتفى
ان تتأسف على شهيد البين

قصيدة الاب حمة الله ابو ناضر

هزار روحي صاح ونورُ صبحي لاح
قلبي صفا والهمُّ عني انتفى
مذ روَّح روحي رنات طريح ناح

∴

هزَّتني ذاتُ الالحانِ وراع قلبي نواها
اذ هيَّج مني اشجاني ذكرى هواها
حيهات أهند تنساني وراح عمري فداها
ما نوحُ حمائم لبنانِ الَّا صداها

∴

يا عاشق الشرفين يا شائق المتين
دم في الهنا يا صاحب الهنا
واسلمْ وتحكَّم في الصبِّ قرير العين

∴

قد هلَّت دمعة اجفاني تزيلُ غلَّ الصدورِ
فأفوز بلقيا اخداني ابناء صيدِ
وامشع في العمر الثاني بحسن دورٍ جديدِ

فيشنف مني آذاني صوتُ الرشيدِ

∴

يا احورَ العينين واكحلَ الجفنين
جُدْ بهواك وارحم حشا مضناك
وافرح وترنّح يهنيك ، عداك البين

الخامس عشر : قصيدة أخرى

نظمها شاكر افندي ناظر الحروف المهملة على غرار القصيدة التي مرّت[1]

أسلمى روح حالَ الدهر طرًّا عروس حسام حول حماك حورُ
هواك كسكّر مسحورُ مولًى ودلّ على مواسمك السحورُ
ألا هو طوع امرك ما علاهُ سماكٌ دارَ وهو لهُ مدورُ
وكم امسى لمعناهِ حسودٌ وها هو للهوى اسدٌ هصورُ
وما أحلى كلاماً حلّ عمدًا ولاح الطرس أسطرهُ الصدورُ
سلوك دموعك الحرّى صحاحٌ ومالك ، دمْ لدى سلمى كسورُ
سلوها هل لمبعدها حلولٌ وهل حلّ الورودُ أم الصدورُ
دواء الهائم المكلوم وصلٌ لما الارهام سلمى والامورُ
وصار حماك كالاسماك لمّا أحاطك للملاح سهىً وسورُ
ودرُّ الوصل لاح على كؤوسٍ وكلُّ ملامح الراح السرورُ
ودلّ على حماكِ دموعُ غادٍ وعطّرهُ صلاحكِ والطهورُ
أسلمى لا دهاكِ الدهرُ عسرٌ ودام هواكِ ما كرّ الدهورُ

---

١) نقلتها عن الاصل الذي هو بيدي

السادس عشر : تأريخ

من نظم الاب نعمة الله ابو ناضر لدير الكحلونية

في رئاسة عام قدس الاباتي اجناديوس مركيس على الرهبانية اللبنانية عين بالانفاق مع الزائرين الرسوليين دير مار الياس الكحلونية للاصلاح في عهد رئيسه الاب يوسف عازار فنظم الاب ابو ناضر هذه المناسبة التأريخ الآتي :

بنيان هذا الدير شيد على التقى متجددًا بعناية الفتاح
في عهد يوسفَ عازار الرأس الذي وقف الحياة على تقىً وصلاح
ورئيسنا الهمام التقيّ اجناديوس مركيس من هو نخبةُ الصلّاح
وبسعى زوّارٍ رسوليين صار م نظامهُ متكللًا بنجاح
قد سبّح الله المؤرخ ساجدًا اذ تمّ فيه مبتدا الاطلاح

١٩١٣

السابع عشر : تأريخ كنيسة دير مار انطونيوس حوب

من نظم الاب نعمه الله ابو ناضر

قد رمّ لله ميخائيل[1] خادمهُ كنيسةً فخرها العبّادُ تبتكرُ
وذاك في عصر مار الياس بطركنا[2] الملفان مَن فضلهُ في الشرق مشتهرُ
وحوب ان سألت عن فخر بيعتها التاريخ قال بها الايامُ تفتخرُ

سنة ١٩٠٣

الثامن عشر : قصيدة ترحيب

بالمرحوم الاب برتردس غبيره رئيس الرهبانية الانطونية العام الذي شرّف دير سيدة المعونات مركز رئيس عام الرهبانية اللبنانيه ، وذلك سنة ١٩١٤

وكان على خلاف مع ابناء رهبانيته الانطونية

فنظم الاستاذ الاب نعمة الله ابو ناضر هذه القصيدة

الذي لم يبق منها في الذاكرة سوى هذه الابيات الآتية وهي :

اهلًا بمن قد كان اهلًا ان يُقلَّ على اليدين
اهلًا بزائر دار صنو لم تعزّ بغير ذين

---

١) الاب ميخائيل غوش التنوري الذي رمم هذه الكنيسة .
٢) البطريرك الياس الحويك .

ومنها :

ابشرْ فمكتك بيننا في «قلعة» او في «الحصين»[1]

ومنها :

يا ليت ليت لنا على رغم العدى برتردسين

في ولادة الاب نعمة الله ابو ناضر ودراسته وترهبه وسيامته كاهناً

وُلد الاب نعمة الله عبد الله ابو ناضر في سكنتا سنة ١٨٦٢ وأُطلق عليه اسم شاكر[2]. درس في كليّة القديس في بيروت ست سنوات كان فيها مثال الاجتهاد والنشاط ودرّس فيها ايضاً وفي مدرسة الارمن الكاثوليك في حلب : سافر وجال واكتشف واطلع وجمع ووعى ما هو اشرف واغلى من المال، ودافع ورافع في الدعاوى وتعرّف بكبار القوم، وكتب في صحف الاستانة المقالات الشائقة والقصائد الرنانة وما زال القلم سميره والكتاب جليسه حتى ذهب في سبيل كل حيّ : انضمّ الى الرهبانية اللبنانية المارونية . ابتدأ في دير كفيفان وكان يخدم المرضى والشيوخ المحزنة ويتعاطى الخدم الحقيرة اذلالاً للنفس ورغبةً في كسب الاجر والثواب . ونذر في هذا الدير النذور الاحتفالية عن يد رئيسه السيد الذكر الاب اغناطيوس داغر التنّوري وذلك في ٢٢ شباط سنة ١٩٠٣ . ولما سيم كاهناً سنة ١٩٠٦ هنّأه احد الادباء من اصحابه العارفين ببسطة علمه وسامي مداركه بهذه الابيات الجميلة وهي :

يا حبّذا مجدُ رهبانية سعدت بكاهن فيه قد قرّت نواظرها

---

١) يريد به دير القلعة في بيت مري مركز الرئيس العام في الصيف ، ودير مار روكس الحصين في الدكرانه مركزه في الشتاء .

٢) وورد عنه ما يلي :

« هو شاكر بن عبد الله بن سابين بن الياس بن عثمان بن يوسف بن خليل بن الياس ابو ناضر . وهو الثالث باسم نعمة الله ، درس في كلية الآباء اليسوعيين (بيروت) اكليريكياً علمانياً حتى الفلسفة فاللاهوت . ترك المدرسة وتعلّم الفقه على اخيه طانيوس بك ابو ناضر الشهير واتقنه وزاوله . — سافر الى الاستانة وانتظم في سلك جمعية تركيا الفتاة ، وكان فيها من رجال النهضة والقلم . — بقي في استنبول تسع سنوات وكان على عهد جمال الدين الافغاني اكبر الثوار على سلطنة عبد الحميد واكبر داعية لتحرير العرب . كتب في صحف الاستانة وفي صحف بيروت ولبنان . ثم هرب من استنبول ماشياً على قدميه (وبرفقته سعيد بك حماده الذي أُلقي القبض عليه في الاناضول وقُتل) .

وبعد ان قامت حكومة عبد الحميد الثاني على جمعية تركيا الفتاة وناهضتها وطاردت

مهذّب شفتاه العلم قد وعتا والشريعة من فيه جواهرها
قد لاحظ النفس والتعليم عن صغر فطابت النفسُ بل طابت ازاهرها
ومال عن زخرف الدنيا وما فتنت كنوزها بنة لبًّا او ذخائرها
مسدَّد الرأي محمود الخصال لهُ في العلم منزلةٌ عزّت نظائرها
هي الفضيلةُ قد تاهت به طَرَبًا وروضة الدير قد فاحت ازاهرها
وبلبلُ البشر بالتاريخ صاح بها بنعمة الله يزهو اليوم ناضرها
١ ٩٩ ٧ ٦٢٨ ٢٨ ٨٧ ١٠٥٧

١٩٠٦

حفلة تكريمية للاستاذ الاب نعمة الله ابو ناضر

في نهاية السنة المدرسية في دير سيدة المعونات – جبيل ، في احدى سنيّ الحرب الكبرى، اقام الاخوة الرهبان التلامذة حفلة تكريمية شائقة لاستاذهم الاب نعمة‌الله ابو ناضر ، تبارزوا بمدحه في اظهار عواطفهم وعرفانهم الجميل بخطب وقصائد ، وكان من جملتهم كاتب هذه

اعضاءها فالتجأ في حلب الى مدرسة الارمن الكاثوليك ودرّس فيها بزيّ راهب . ثم جاء بيروت ، فأُقيمت عليه وعلى اخيه طانيوس بك الدعوى انهما من حزب تركيا الفتاة . وتفاصيل تلك الدعوى مذكورة في ترجمة اخيه . وقبل ترهبه درّس في كلية القديس يوسف في بيروت صفَّ البيان وأنشأ جريدة «روضة المعارف» هو والشيخ محمد الانسي فعاشت سنتين . ولما تبرأت ساحتها زهد المترجم ودخل الرهبانية اللبنانية في دير كفيفان (بلاد البترون) ثم الى المدرسة اللبنانية (قرنة شهوان) فدرّس فيها وهو اخ . وهناك رقّاه الى درجة المطران بطرس الرغبي .

عين كاتبًا للرئاسة العامة في عهد الرئيسين العامّين اجناديوس سركيس واغناطيوس داغر التنوري.

درّس في المدرسة اللبنانية، ثم الاخوة الرهبان الدارسين في ادبار مار قبريانوس كفيفان وسيدة نسبه غوسطا وسيدة بيفوق وسيدة المعونيات – جبيل – ومار سركيس قرطبا ، فاشتهر بهيبته ومحبة تلاميذه له . وانشأ من بعض الرهبان فطاحل باللغة العربية خاصة واحياها في الرهبانية بعد فترات .

كان منشئًا قديرًا وشاعرًا كبيرًا في العربية والتركية ، بليغًا ومحدثًا مفكرًا موزون التعبير قوي الحجة – وكان يجيد من اللغات: العربية ببلاغة والفرنسية واللاتينية والتركية.

وقد خلّف آثارًا كتابية منها منشورة ومنها غير منشورة . مات في ٣٠ ايلول سنة ١٩٣٢ م ، (راجع صفحة ٨٥ و ١٢٠ من كتاب « تاريخ بسكنتا وأُسرها » للمخور اسطف بطرس حبيقة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٦ في ٣٠٧ شفحات بقطع كبير)

الـطور الاب انطونيوس شبلي اذ كان احدًا تلاميذا للاب الموما اليه . وقد حضر هذه الحفلة الرئيس العام الطيب الاثر الاباتي اغناطيوس دانغر التنوري والاباء المدبرون والمدبرون وجمهور الدير . وبعد ان تكلم الاب شبلي في دوره عن منافع العلم ومضار الجهل استطرد الى كلمته في استاذه نثرًا وشعرًا وها اننا نثبتها هنا نقلًا عن دفاتر فروضنا المدرسية كما هي مدوّنة من سنة ١٩١٨. تذكار ايام المدرسة الجميلة . قال :

ما ذكرت العلم والعلماء الّا عددتُ استاذي الاب نعمة الله ابو ناضر بين ارباب وحملة مشاعله . فاسمح لي ان اوجّه اليك هذا الكلام فاقول :

لي في مديحك ، دمتَ وقفةُ شاعرٍ ... والشعر في ربّ الفصاحة سلسبيل
عفتُ القوافي من سنين وقد نسيتُ ... النظم ، لا حاشاي ، اني ذاكرُ
وسئمتُ مدح الناس في ايامنا ... وسكتُ لكن في السكوت مرارة
نظمُ القريض بهم عصى متمردًا ... لكنّه في نظم مدحك صاغرُ
من روض فضلك ضاع عرفُ فضيلة ... عبقت فأفشت ما حوتهُ سرائرُ
عزّزتَ مدرسةً بحزمك ازهرت ... زهرًا عليها كم تغنّى طائرُ
كم من تلامذة بفضلك اصبحوا ... كالجوّ منه همى سحابٌ ماطرُ
اديارنا بك قد زهت ارجاؤها ... صرح العلوم بها مجدك عامرُ
فلأنت للآداب ركنٌ ثابت ... شهدت لك بهِ طلّبٌ وحبائرُ
كم قد سهرت بجنبها متجهّدًا ... والليلُ خلو النور داجٍ عاكرُ
وسميرك القرطاس والقلم الذي ... للبطل يحزي للصواب يناصرُ
اك في القريض قصائدٌ رنّانةٌ ... صدعت وقالت انت وحدك شاعرُ
منها انجلى عقلٌ توقّد بالذكا ... ما فاتهُ بالامس يومهُ حاضرُ
فالعلم ناخ برحب صدرك ركبهُ ... وعلى ضياك مشى الغريبُ السائرُ
في أربع اسطنبول صيتك شائعٌ ... في العالم العربيّ فضلك زاهرُ
ابقيت في «نسيبه» ذكرًا عاطرًا ... رغمًا اقرّ بهِ الأعقّ الناكرُ
وكذاك في «ميفوق» اسمك لم يزل ... كالطيب منهُ بدا شذاه عاطرُ
أنى يُصدَّق ان ذكرك ينطوي ... والعلمُ عزّ بهِ وقام يجاهرُ
كم ذقتَ من نَصَبٍ بعلم شبيبةٍ ... وبناك يقظانٌ وطرفك ساهرُ
وكفى لرهبنةٍ بثاك جهبذًا ... هو رافعٌ علَمَ العلوم وناشرُ

لا تحسبني في مديحك شاعرًا ان الفؤاد بصدق حبك شاعرُ
بالامس شعري كان غصنًا ذابلًا واليوم في روض الثنا هو نضرُ
طوّقتَ جيدي بالقلائد منعمًا فعرفتُ ذا وانا وليدٌ شاكرُ
ان كنتُ قد قصّرتُ في مدحٍ فها شعرُ الفرزدق في مديحك قاصرُ
لا زلتَ في صدر المعارف مشرقًا توقيك من رشق الحسود مخافرُ

واذا ذُكرت مآثر الرجال فانت اولى بالذكر والثناء :

« انت الجديرُ بكل فضلٍ نلتهُ وحويتهُ وبكل مكرمةٍ حري »

واذا ما اتيت على تعداد فضائلك وصفاتك الغرا. فاني انطق بالحق والصدق. فاني اصدق اذا ما قلت عنك انك كاتبٌ بليغ وشاعر مجيد :

فاذا نظمتَ فانت ابلغُ شاعرٍ واذا نثرت فانت افصحُ خاطبِ

بالحقيقة انك كاتب بليغ وشاعر مجيد وصحافي قدير ومحام لامع تعد من حملة الاقلام ، قد عرفتك الصحف والمحاكم والمجالس والمحابر والمكاتب بانك فرد من افرادها . فان مكتب الرئاسة العامة على الرهبانية اللبنانية الذي تسهرت عدة سنين عليه وتصببت عرق المشقة وسهرت الليالي الطوال جالسًا اليه تسامر القلم والقرطاس ولم تزل الى الآن ، سيحفظ لك ذكرًا جميلًا يتناقله الخلف عن السلف . فان جميع ذلك يحدثنا عن وفرة معارفك وسعة اطلاعك ومقدرتك في كل علم تعلمته . وها ان جرائد استنبول التي رصّعتَ صفحاتها بالامس بنفثات قلمك الساحر تشهد لك بانك من العلماء المحققين والكتبة المبرزين.

فان لك ايها الاديب العالم في الحزن رنة وفي البشر طنة فاذا تكلمت رناء ادميت القلوب وان كانت صلبة كالجلمود . واذا خطبت او قلت شعرًا لعبت بالعقول بسحر بيانك لعب المتقة بالرؤوس . واني لا اغالي اذا قلت ان لك شعرًا قويًا متينًا — (ويا له من شعر من الصخر امتنُ) — ودليلًا على ذلك اورد بعض ابيات من قصيدة عارضت بها قصيدة امرؤ القيس قد انشدتها للمثلث الرحمة المطران بطرس البستاني بعد عودته من رومية والقدس تقلّه دارعة فرنسية خاصة فقلت مشبهًا الدارعة :

أطيرٌ يشقُّ السافيات ويرفلُ ام العيسُ في سهلٍ من الارض ترحلُ

أجلودُ صخرٍ حطَّهُ السيلُ من علِ إم الصلُ ما بين الزهور يغلغلُ
تراها كخودٍ قد اطالت برقصها على ربوةٍ خضراء تعلو وتسفلُ
نعم هي تطفو فوق امواج مزبدٍ تبطأنها شيخٌ لـهُ القلبُ منزلُ
هو السيِّدُ الحبرُ المفدَّى بأنفسٍ غوالٍ لهُ المجد الشريفُ المؤثَّلُ

فمن خلال هذه الاشعار وغيرها يتبين لنا رسوخ قدمك في اللغة العربية ، فان القوافي والبديع والمعاني والبيان والتشابيه والكنايات والاستعارات تخضع لك خضوع العبد لسيده وتقف على بابك قائلة :

« على الباب عبد من عبيدك واقف »

وقد جمعت ايها الاب الفاضل العالم الى ما في صدرك من العلم ، جمال الفضيلة الراجحة والمروءة والتجرّد والشهامة والوداعة والتواضع ، لا تعرف الارتفاع ولا الانتفاخ وانك بين اخوانك الرهبان كالحمامة البيضاء. ويشهد على تواضعك واماتتك ما كنت تأتيه من ضروب الخدمة الحقيرة للرهبان العجزة الشيوخ في اديار كفيفان وميفوق ونسبيه — غسطا — والعظمة في الخدمة المتواضعة — وقد عاشرتك سنتين كنت خلالها اتردَّد عليك واتقلب بين يديك كالولد بين يدي ابيه ، وكنت تقبلني بوجه باش وصدر رحب ، ففي اثناء هاتين السنتين قد طبعت على صفحات قلبي اثرًا لا يمحى وحبًّا لك لا يفنى . . .

وفاة الاب نعمة الله ابو ناضر في دير مار الياس الكحلونية

جاء في رزنامة هذا الدير ما هو بالحرف الواحد .

« قد انتقل الى ربه النفس نعمة الله ابو ناضر ليلة الاربعاء في ٢٠ ايلول سنة ١٩٢٢ (١). والمرحوم دخل الرهبنة في شباط سنة ١٩٠١ في دير مار قبريانوس كفيفان . ولما ألبس الاسكيم الملائكي حاول رؤساؤه ان يقنعوه بالاستعداد للكهنوت فانثنى لتواضعه ان يتركوه أخًا طول حياته لانه كان يعدّ نفسه غير اهل لتلك الدرجة الملائكية . وهكذا لبث اربع سنوات قبل الجهد خضع وقبل الدرجة المقدسة ثم اخذت أمه الرهبانية تستخدمه في نعايم ناشئتها ، فدرَّس في دير كفيفان ودير نسبيه — غسطا ودير ميفوق ودير قرطبا ودير سيدة المعونات في جبيل وابدى في هذا العمل العام غيرة عظيمة متفانيًا في تهذيب اخوته

(١) ورد تحت رسمه انه توفي سنة ١٩٢٣ والصواب ١٩٢٢ .

الرهبان الادبي والروحي . وفي رئاسة قدس الاب اسطفان بن مركيس العامة عُيّن كان سرّ له . وكان رئيس معاملة لاديار الدّين والقاطع لما عاجلته المنية . وقد كان رحمه الله راهباً قانونياً متجرداً شديد التقشف محافظاً في حياته كل المحافظة على حفظ نذور الرهبانية المقدسة ولا سيما نذر الطاعة . وقد احتفل بجنازته يوم الخميس ٢١ الجاري ودفن في مدفن الدير بعد ان أبّنه قدس الاب العام اغناطيوس التنوري (الذي كان موجوداً في دير الكحلونية) بالفاظ استرقت الدموع من عيون الجميع . رحمه الله ومتعه برؤيته السعيدة في النعيم الخالد .

كاتبه
القس يوسف مركيس الشانيّة
رئيس دير الكحلونية

رثاء

فقيد الرهبانية اللبنانية المارونية العالم العامل
المرحوم الاب نعمة الله ابو ناضر

ما انتشر نعي الاب ابوناضر حتى بكته الرهبانية بدموع حرّى ولاسيما تلاميذه الذين أثرت فيهم وفاته فتفجعوا عليه ما شاء الله ان يتفجعوا ، منهم تلميذه حضرة الاب بطرس الكفوني الذي خلفه في تدريس المعاني والبيان لاخوته الرهبان في دير سيدة المعونات — جبيل . وقد رثاه بقصيدة رقيقة تنبض بالأسى والاسف والعاطفة والشعور وصدّرها بهذا العنوان المذكور رأينا ان نختم بها هذه الصفحات وهي :

كادت بفقدك أعظمي تبرى ... وغدا فراقك للورى مُرّا
والقلبُ أدماهُ تقرّحهُ ... وعليه اصنافَ البلى جرّا
والسُهدُ زاول أعيناً هطلت ... وهمت عليك دموعها الحرّى
وغدا الفراش لاضلعي ضرماً ... والنومُ عن عينيَّ قد فرّا
لم ألفِ مثلك راحلاً رحلت ... معهُ المروءةُ والحجى طُرّا
لم ألفِ مثلك ماتناً عبقت ... حسناتهُ بين الورى نشرا
لم ألفِ مثلك عالماً ملأت ... اعمالهُ البيداء والبحرا
لم ألفِ مثلك جهبذاً عذبت ... اقوالهُ حتى غدت خمرا
فخري واستاذي وخيرَ أبٍ ... ومعلّمٍ نلنا بهِ فخرا
مَن لي بمنطقهِ فأرثيهُ ... واقولُ فيهِ الشعرَ والنثرا

مَن لي بدمعٍ لا يغيضُ لكي ابكي الفصاحةَ والنُهى الدهرا
رجلَ الفضيلة والحصافة مَن برقينا قد أنفدَ العمرا
وسقى رياضَ عقولنا فنمت فلذاك نوقفُها لهُ نذرا
ان الألى اغتنموا فوائدهُ سخُوا عليهِ دموعهم حُمرا
وخدودهم لحدًا لهُ جعلوا وقلوبهم لرفاقهِ قبرا
وحشاهمُ كفناً وأضلُعهم نعشاً لمن رقأهم الشِعرى
يا ناضرًا أذواكَ دهرُ خنى لا يغفرُ المولى لهُ وِزرا

∴

تبكيكَ رهبانيةٌ فُجعت بأعزّ من شدّت بهِ أزرا
وزعيمها أروى الضريحَ وقد أبكت سيولُ دموعهِ الصخرا
لغةُ البلاد بكت عليك دماً إذ كنت في عليائها بدرا
أنفقتَ وقتك في مغالقها مستخرجاً من بحرها دُرًّا
نضرت بناضرها وقد ذبلت لنا ذبلتَ وحشرجت ذعرا
تبكيهِ أنديةُ الكرام لنا حلّت بدُرّ كلامهِ نحرا
يبكيهِ علمُ بلاغةٍ تخذت في رأسهِ لكعابها خِدرا
وشبيبةُ الرهبان قد خسرت فيهِ إماماً حاذقاً حبرا
يبكيهِ طولَ حياتهِ ولدٌ درس البيانَ عليهِ والشِعرا
آثارهُ الغرّا تهيجُ بنا الاحزانَ عند تجدُّد الذكرى
فعليهِ الفُ تحيّةٍ وسلا م يزدري الريحانَ والعطِرا
والهُ من الابناء خيرُ دعا وعليهِ رحماتُ السما تترى
وأجاهُ ربّي الجنانَ لقا اتعابهِ وأنالهُ الأجرا

في ٢٥ ايلول سنة ١٩٤٣

الاب بطرس الكفوري
اللبناني

مقدمة

الآثار التاريخية في المكتبة النخلية

يقول كاتب هذه السطور الاب انطونيوس شبلي اللبناني : انه في شهر نيسان من سنة ١٩٠٥ زرت بيت الوجيه الكريم الاديب الكبير امين بك نخله في بيروت ، واطلعت على مكتبته العامرة التي اسسها المرحوم عباس بك نخله ووصفت الكتب المخطية فيها مستطردًا الى الكلام عن الكتب المطبوعة النادرة وجمعتها في نبذة مستقلة تحت عنوان : « الآثار التاريخية في المكتبة النخلية » ووضعت لها هذه المقدمة وهي :

لا يندُّ عن الاذهان ان ديارنا الشرقية ظلّت قرونًا طويلةً خاليةً من المطابع ، وان ايدي النساخ هي التي قامت مقامها في نشر وحفظ نتاج ثمرات ومولدات أدمغة العلماء والمفكرين الكبيرة الضاربة في بيداء كلّ علمٍ وفنٍ تقتله درسًا وتفكيرًا ، فبرهن اصحابها للملا على انهم من المجلّين في مضمار الاختراعات والعلوم والفنون . فانتهى الينا قسم من ذلك النتاج الفكري الدقيق العميق يتهادى برشيه الناصع وحليه الرائع فكان متنزّل الوحي ومتجلّى الحكمة والالهام يصدعُ بما لاولئك العلماء الفطاحل من الآراء الصائبة الدالّة على خصب فكرهم المولدة المبرعة ، والعقول الثاقبة التي خلقت المُلَح النوادر والجواهر البواهر البالغة بارباجها الى أعلى درجات قمة المجد ونباهة الذكر .

وكانت هذه الآثار موردًا عذبًا للعطاش ونجعةً للروّاد ومُعافرًا للطلّاب يعتضدون بآرائه ذويها في معضلات المشاكل ومبهمات المسائل ، وحجّةً قاطعةً ناطقةً بما خصّ الله علماء العرب من العبقرية والنبوغ ، فكان لهم فضل التقدُّم في ميدان التأليف والترصيف . ولا يستطيع اصحاب الدعوى العريضة وأولي المكابرة الجامحة والمعاندة الجانحة الى مرامي الادّعاء والاستغواء ، نكران هذه الحقيقة الساطعة في جبينهم والمستترة تحت طيّ لسانهم خجلًا واستحياء .

واما القسم الآخر من تلك الذخائر النفائس فقد عفّى آثارها تراخي الايام وكرور الاعوام ونسجت عليها عناكب الاغفال والنسيان ، فلم يصل الينا شيء من اخبارها بل بقيت دفينةً في صدر الزمان .

وان بعض تلك الكتب قادها سوء الطالع الى ايدي نسّاخٍ جهلة نسخوها فسخوها فتبدّل حالها وشوّه الكلفُ جمالها فبرزت الينا من دياميس العصور الغابرة

تتلبس ثوباً شاعت في تضاعيفه الخروق وكثرت فيه الرقع كأنها عجوز دميمة وجه فشت في قسماته اخاديد وغضون تخبأت تحتها لمحات لذلك الحسن الضائع والبهاء اللامع تنبئ انها كانت في سالف الزمن من ربات الحجال الموسومات بسيم الظرف والجمال .

ولو لم يكن لتلك المخلفات الروائع وزنها وقيمتها لدى ذوي البحث والتنقيب لما رأينا المستشرقين يبالغون في التفتيش عنها ولسان حال كلٍ منهم يقول :

طال احتجابك طاب لي ان تسفري حتى أمتع في بياضك ناظري

حتى اذا ظفروا بأثر منها بدروا الى استفراغ الجهد في الكشف عن محاسنه والاسراع الى نشره ، رافعين الحجاب عن مطلع شمسه ومنبع درّه يدللون به مستكبرين مفاخرين .

* * *

وليس من يجهل أنّ طائفة منهم طافت البلاد المشرقية بالطول والعرض متجشمة عناء الاسفار غاشية اهول المخاطر ، للتنقيب والاستهداء الى مكامن تلك الآثار المحتجبة عن النواظر ، باذلين النفس والنفيس للظفر بها والحصول عليها . وقد رأينا الملك لويس الرابع عشر يبعث الى الشرق احد علماء النسا باذلاً له المال عن سخاء لمشترى كتب العرب ، فجال في مدنه وقراه وظفر بما ابتغاه وعاد الى مخدومه حاملاً عدداً وفيراً من تلك النفائس الصابرة على غِيَر الايام . وان الشيخ بلنصر الخازن ذكر اسماء الكتب التي عثر عليها العالم النسوي على ما ستقرأ في هذه اللمحة التاريخية ، وانا ما عرفنا منه غير اسماء بعضها . فهل لمحبي الآثار التاريخية الشرقية ان يبحثوا عنها ويرفعوا عن وجهها النقاب ويتحفوا بها العالم العربي ؟

والنابغة السمعاني الكبير قد سافر الى كل انحاء المشرق حتى تخطّى الى أبعد حدوده طلباً لهذه الآثار فوقع على قسم منها فاشتراه وقفل راجعاً الى المدينة الابدية يعكف على درس تلك الاسفار ويكسر الصدف عما عُرف به من العلم الراسخ والعقل الراجح ، عن دررها الغوالي ويرسلها الى العالم الغربي مجلوّة كالحسنا حاملة البرهان القاطع والدليل اللامع على نبوغ العقل الشرقي .

وقد طرّس على منوالهِ المطران جرمانس فرحات المتأنق الشهرة في علم العربية والحامي حماها ، فذهب وهو رتعب الى اسبانيا للاطلاع على آثار العرب في خزائن مكاتبها . ولم يقفل راجعاً منها الى الشرق بغير جدوى . وبالرغم مما اعترضهُ من الصعاب ومن شواغلهِ المتراكمة ومهامّه المتراكبة تركت لنا يدهُ الكريمة نحو مئة وستين مخطوطاً في خلال اثنين وستين عاماً ، أودعها طرائف القرائح وطرَق في بعضها افضل المواضع وأظهر المباحث التي توسّع المدارك وتُطلق المعارف .

وعلى ما بدا لنا بعد الاختبار والاستقراء ، ان الذين صانوا لنا هاتيك الكنوز من الاندثار والتلاشي ، معظمهم من المتصوفين والمتنسكين الذين خلعوا الدنيا ولم يخطر لهم يوماً ببال الاسفاف الى سفاسف الحياة للتلهي بها ، الراغبين في إحياء روح العلم والادب والتاريخ ، فصبروا وثابروا على اقلامهم في نقل التآليف التي انفق اهلها العمرَ بين صرير الاقلام ومداد المحابر صوناً لها من الاغفال والضياع .

ولم يُفتنا الاهتداء الى بعضها ، وكنا وما زلنا نفتش عنها ونتقصّى اخبارها وما سمعنا بمخطوطٍ الّا قصدناه . وبلّغنا اخيراً ان في دار فقيد لبنان الغالي وشاعرهِ العالي رشيد بك نخله ، مكتبةً جليلة القدر جديرة بالذكر ، فلم نتردّد عن الذهاب اليها في بيروت . وما ظلّتنا سماء تلك الدار النخلية المنزلة عن ضوضاء المدينة والهادئة المستلقية بين أذرع السكينة ، حتى لاح لنا الاباء والشمم اللبناني متجلياً فيها بعظمتهِ وروعتهِ ، واحسسنا بذكريات « الرشيد » تستفيق في حافظتنا وتُثير بنا هزّة ارتعاشٍ لفقدهِ ولذّة انتعاشٍ بذكرهِ ، وعرفنا كيف يخلدُ الرجل بالذكر الى يوم البعث والنشر ، فردّدنا فيهِ قول القائل :

لطمتْ عليك وجوهها الحسناتُ والمكرماتُ الغرُّ والهمّاتُ

ومَن من الناس يجهل « الرشيد » الذي رفَعَ « النشيد » عالياً فاهتزّ لوقعهِ وتوقيعهِ لبنان من اقصاه الى اقصاه ، حتى تحرّك العظم الرميم في ثراه .

دمعت عيننا على شاعر ملهم عبقري أطرب لبنان نيفاً وخمسين سنة بقاطع واشعار سارت مضرب المثل على كل شفة ولسان ، فكانت طرفة من طرف الخواطر وقطعة من روائع السحر والبيان.

وكأنّ سماء لبنان الرائقة ، ومناظر جباله الفاتنة ، ومطلع الشمس فوق روابيه العالية ، ومسبح القمر والنجوم في لياليه الصافية ، وجلال تبعي الصفا والباروك خلعت عليه وشاح العبقرية الفذة ، فنفح لبنان بالبديع المعجز والبيان المطرب .

ذكرنا «الرشيد» فمثل لذهننا رجلٌ عصاميٌ عظاميٌ جمع بين السيف والقلم وتمثل عند رؤيته عجز قلمه عن باوغ مرامه بالقول المأثور:

« ويفعلُ السيفُ ما لا يفعلُ القلمُ »

ذكرناه على ظهر جواده الادهم كمالية الرمح يردّد شعر المتنبي:

الخيلُ والليلُ والبيداء تعرفني والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

وما ذُكِرَ «الرشيد» ذُكِرَ الاخلاص والوفاء والسعي لاستقلال لبنان . ففي احرج اوقاته وفي ايام محنه وأناته تحت ثقل الملمّات والنكبات التي تواردت عليه وهو في « المنفى » كانت تثورُ بين اضلعه محبة لبنان فتغنى بها ترى:

« جبلٌ على الدنيا أطلَّ بمجده ولغير ربّك ليس يُحني المنكبا »

ولم يتحوّل في جميع مناحي حياته عن وفائه للبنانه ، ولا عن الجهر بوجوب استقلاله ، ولم يزحزحه شيء عن الثبات في عقيدته الوطنية . ولم تفتر فيه همة ، ولا نبا له حسام ، ولا كبا به جواد ، ولا كلَّ له يراع ، ولا خمدت له قريحة ، ولا شاخت له مروءة في جهاده هذا ، فشاب شَعره ولم يُشِب شعره ، ولا حزمه ، ولا عزمه ، ولا خُلُقه ، ولا دينه ، ولا كَرَمه . وكأنه في كل ذلك يقول :

« ما شاب عزمي ولا حزمي ولا خُلُقي ولا وفائي ولا ديني ولا كَرَمي »
« وانما اعتاد رأسي غير صبغته والشيبُ في الرأس غيرُ الشيب في الهممِ »

اجل ! ان الموت طوى «الرشيد» ولكنه لم يطوِ ذكره ولم يطمس أثره .

« لقد طوت شخصهُ الايام غادرةً وما طوت منه ذكرًا طيّبَ الأثرِ »

قابلنا الفتى « الامين » ابن سيد العرين ، ببسمته المرحة المشعة على وجهه وفتح لنا باب الدار والمكتبة على مصراعيه فأيقنا في سرنا « ان هذا الشبل من ذاك الاسد » — ومن شابه اباه فما ظلم — كنا في داره العامرة محفوفين بالضيافة النخلية العربية وخلنا نفسنا اننا في «بيت الرشيد المضياف في البارورك» ونحن غارقون في سيل عرم من مئات المجلدات التي جمعت بينها هذه المكتبة الزاخرة بشتى الكتب في العلوم والفنون ، نقلبها وننسخ عنها ما راقنا وطاب لنا . وفيها الكثير من الكتب المطبوعة النادرة الوجود في هذه الايام ، ومن المخطوطات الثمينة والآثار التاريخية المتضمنة فرائد الفوائد الفراقد . وقد حوت الادب واللغة والشعر والتاريخ . وفي كلمتنا الآتية التي سميناها : « الآثار التاريخية في المكتبة النخلية » غنى عن الاسهاب.

فقد أسسها عباس بك نخله وورثها رشيد بك بدوره عن والده سعيد بك وابتاع لها كتباً نفيسة . وهي الآن تحت ادارة نجله امين بك نخله المحامي والكاتب والشاعر المشهور ، وقد رتبها ترتيباً حسناً وجلد كتبها تجليداً فاخراً وزاد على ما تضمنت من قبل كتباً نفيسة ، وترى فيها آثاراً لا تراها في غيرها من المكاتب.

ولا يفوت القارئ اللبيب أن الاديار والمدارس والبيوتات اللبنانية هي التي حفظت لنا هذا التراث الادبي الكبير من الضياع ، واليها يعود الفضل . والفضل يعرفه ذووه.

* * *

كان عهدنا بامين بك نخله انه من الممدودين في عالم الادب والمتفوقين في قرض الشعر واللامعين في فن المحاماة ، فاذا بنا نراه من السابقين في البحث والتحقيق في اللغة . وهو يملك القسط الوافر من العلم في التاريخ والسياسة . وفي متناوله كل شاردة وواردة ، وله المام واسع في كل علم وفن وخبر.

ومن غريب امره انه لم يدع سفراً من اسفار هذه المكتبة الحافلة بنات الكتب ، على ما ألمعنا اليه ، الا درسه والم بابحاثه واغراضه ، لاننا ما كنا نسأله عن كتاب الا اعرب لنا عن مضمونه ومد اليه يده في الحال وأتى به ، حتى انه ليتلمسه ويتحسسه مهتدياً اليه في الظلام . فدهشنا لهذا الامر وحسبنا

نفسنا في المكتبة الشرقية في كلية القديس يوسف بحضرة العلّامة الاب لويس شيخو الشهير بهذه المواهب النوادر .

وبالرغم من كثرة مشاغل « الامين » العديدة واستقبال الواردين الى داره وتوديع الصادرين عنها الليل والنهار قضاء لحاجاتهم ، فما كنا نراه في الحالين الّا « طلقَ المحيّا كالرياض بيشره » .

ولا بدع ان يزدحم طلّاب الحاجات في بابه — فالموردُ العذب كثيرُ الزحام — وهل تكون دار آل نخله موصدةً دون قاصديها في زمنٍ من الازمان . وبيتهم في الباروك يُدعى « بيت الأمّة » . واننا نشاهدُ «الامين» يمشي على آثار والده طابعاً على غراره في أدبه وشعره وفي سمة صدره ورقّة شعوره وكرمه وفي الرسوخ بمبدئه الوطني . لا زال يصعدُ في درجات سلّم الوجاهة والنبل والكمال والفضل ، يُطلعنا في كلّ يومٍ على أثرٍ جديدٍ من آثاره ، وعلى خبرٍ ملذٍّ من أخباره .

الاب انطونيوس شبلي
اللبناني

دير سيّدة المعونات — جبيل — لبنان
في ٢٥ نيسان سنة ١٩٤٥